ماذا علمتني الحيـــاة ؟

تأليف الأسقف و . ر إنج

بقلـــم الأستاذ على محمد سرطاوي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

أرى من واجبي أن أذكر شيئاً عن آرائي في الدين ، لأن دين الإنسان الصحيح هو ما يتعلمه في مدرسة الحياة ، وكثيراً ما يختلف عن المعتقد الذي يعتنقه وهو صغير . لقد نشأ والداي في مكان نائ عن المدن في الريف ، وكانا من المتشيعين والمتعصبين لعقيدة التركتاريين القدامى من اتباع بوسي و كبل (Posey—Keble) وهم فئة لا وجود لها اليوم ، يتركز معتقدها في الصلاة وعدم الإيمان بطقوس الكنيسة . وهم يؤمنون إيماناً حرفياً بما في الكتاب المقدس ، وبصورة خاصة بما نشره الحواريون من تعاليم لم تثبت تاريخياً . ولقد كانوا متقشفين على الطريقة البيوريتانية من حرمان النفس والبذل للمحتاجين . كان يوم الأحد مقدساً جداً ؛ لا ألعاب فيه ، ولا قراءة في كتب دنيوية . ولسبب لا نعرفه كانت تحرم علينا قراءة الروايات ذات (الغلاف الأصفر) [1] حتى روايات ت كاري وديكنز كانت تحرم علينا .

أما قصص شكسبير وولترسكوت فكانت تقرأ علينا بصوت جهوري ، لقد كانت ثقافة جيدة على عيوب الرقابة التي فيها .

لكنني سرعان ما تمردت على ذلك ، وأحسب أن أبي لم تتنفرل تمردي طيلة حياتها ، ولم يسرها مطلقاً تقدي المطرد في سلك الكهنوت لأن الرأي السائد في ذلك الزمن كان يتلخص في أن الرجل المفكر لا يصلح لخدمة الكنيسة . إنني لم أفكر مطلقاً في المعتقدات الدينية إلا عندما صرت محاضراً في جامعة اكسفورد . لم يكن يسمح لنا في إيتون بالتفكير في مشاكل الحياة ، وحينما كنت طالباً في الجامعة لم يكن لديّ هم غير التنقيب عما تطلبه لجان الامتحانات . أما في اكسفورد فإن أقل محاضر يجب أن يكون فيلسوفاً .

لقد كان الصراع بين الدين والعلم — ذلك الصراع الذي أثار ضجة كبيرة في القرن الماضي — يبحث من جميع وجوهه بحثاً مستفيضاً يبدولنا الآن سخافة مضحكة. أن المعتقد الأرثوذكسي يعتمد في أصوله على النبوءات والمعجزات المتواترة . ليس هنالك سبب يحملنا على الاعتقاد بأن في مقدور البشر معرفة الغيب . إن المسيح نفسه قد اعترف بعجزه عن معرفة زمان يوم القيامة . والبحث في صحة تحقيق النبوءات المزعومة يقودنا إلى سبل ثلاث : أما أن تكون النبوءة قد قيلت بعد وقوع الحادثة ، أو أنها حرفت لتوافق الحادثة في سياق لا علاقة لها به أبداً ، أو أن الحادثة اخترعت لتوافق النبوءة . إن الافتراض الثالث يبدو واضحاً جلياً في الانجيل ، والأمثلة على ذلك تتراءى لنا في أسطورة الميلاد في بيت لحم ، وفي أسطورة مذابح الأبرياء ، وفي الهرب إلى مصر .

أما ما يتصل بحدوث المعجزات طبقاً لإرادة الله ، فأمر يرجع الإصرار عليه إلى ما تواتر في الماضي من رغبة اقتران وقوع المعجزات مع أحداث خاصة ، وهو في ذاته لا يصمد على الدين بريح جزيل . لم يكن قول جوته : (إن المعجزة ابنة الإيمان المعزيزة) إلا تفسيراً لمحاولة الناس ربط قوانين الطبيعة الباردة بتيار من حرارة الروح ، والتهرب من الواقع الجامد إلى الخيال الجميل .

إن الاستناد إلى رحمة الله ، وأنه يستجيب الدعوات وهو للاعتقاد الأساسي لكثير من الناس قد يكون في الاستطاعة من جهة أخرى ، كما اقترح ، اختبار أثر دعاء المخلوق إلى الخالق ، بطريقة عملية ، كما اختبرت (التلباثي) وهي نقل الأفكار من شخص إلى آخر — وكما ثبتت في الولايات المتحدة ، وفي هذه البلاد ، على رأي بعض الناس . والسخط البالغ الذي تقابل به تجربة من هذا النوع ، يخفي وراءه الحقيقة المريرة وهي الفشل التام للتجربة . أن الإله الذي لا يعمل — كما يخيل لناس — أما أن يكون لا ظل له في الوجود ، وإما أنه قانون مجسم من قوانين الطبيعة .

أما ما يتعلق باليم فقد كان الجدل فيه حقيقياً . لقد أنكر علماء العصر الفكتوري « المادة » ، وفسروا العالم بأنه أنواع من (الكم) الميكانيكي ، شاربين صفحاً عما سماه بسمارك « الأجسام التي لا تقبل لها » ، ووصلوا عن طريق ذلك إلى ما سموه « بالنظام

(١) قصص رخيصة قاصرة ، تطبع على ورق أصفر وغلافها كذلك ، كانت شائعة في منتصف القرن التاسع عشر . (المترجم)

التماسك المتلق » . وما دعوه خطأ قانون النسبة لم يكن غير قانون الاستمرار الدائم .

أما العلم الصحيح فلم يكن غير الرياضيات . ليس بالصحيح القول أنها تبصرنا بحقائق لا قيمة لها ؛ لأن الحقيقة في حد ذاتها قيمة مطلقة . إن الرياضيات تضرب صفحاً عن القيم النهائية ولا تؤمن بها ، وتنفض الطرف عن قانون الحرارة والعمل الميكانيكي الثاني (ترمودينامك) والذي بموجبه تتحرك الدنيا في اتجاه عقرب الساعة .

أما الدين ، والمثل العليا فقد أضاف هربرت سبنسر كل ما يدرك إلى العلم ؛ وسالا يدرك إلى الدين ، وخطا ليزلي ستيفن خطوة أكثر فتحدث عن الحقائق الثابتة والأحلام . لقد طفت (دنيا القيم) كالضباب على وجه العالم الملموس في النجوم والذرات ، غير أنها احتفظت ببعض متونها فيما يتصل بالأمور الخارقة للعادة والتي سميت بالمعجزات والتي لم يأبه بها العلم كثيراً . وعلى كل حال سواء كان سبب انتشار مرض الكوليرا الماء الملوث بالجراثيم كما هو الواقع ، أم إلحاد رئيس البلدة التي ينتشر فيها ذلك الوباء ، كما كان اعتقاد كثير من الناس آن ذاك ، فقد انتهت تلك الفصول الهزلية من مسرح الحياة .

عندما أفكر فيما كان يسميه وليام جيمز « التجربة الدينية » وما كان النوس بدعوه بالنور الداخلي أو الإيمان بالروح القدس ، يروقني أن أكرس كثيراً من وقتي لدراسة الصوفية والأفلاطونية ، شأن الكثيرين الذين كان يضطرم في نفوسهم مثل هذا الاحساس أن الإيمان بالنديسين يكاد يكون أمراً مفروغاً منه ونجماً عليه ، وأولئك الذين أعطوا كل ما يملكون ليجدوا الجوهرة الثمينة ، لم يرجعوا صفر اليد ولم يكونوا جميعاً من المسيحيين . لقد كان بلوتونيوس أعظم فلاسفة التصوف في القرن الثالث الميلادي وثنياً . وقد ابتدأنا ندرك الآن أن أشياء كثيرة نستطيع تعلمها من الهنود . وليس أصدق من القول الذي يزعم أن الديانة المسيحية والبوذية قد خسرتا بتدابرهما في طوق الحياة . إن خيال التصوف يبدو لي غامضاً لأنني لم أحصل على معرفة كافية ، ولكنني من ذلك النوع من الرجال الذين لو حدثهم من يثقون به عن وصوله أعلى قمة من جبال العالم ، لاعتقدت إمكان الوصول إلى تلك القمة على رغم عجزي عن الوصول إليها . إن الديانة المسيحية كما يصفها سنت أغسطين ليست إلا الأفلاطونية ممزوجة بعقيدة حلول الروح القدس في المسيح . تكاد معظم الفلسفات تجمع على جعل الإنسان مندمجاً في المثل التي تفهمها الحياة . لكن الديانة المسيحية لا تفصل مثل ذلك . الله هو المحبة . وكثيراً ما تورد المحبة صاحبها موارد الهلكة ، وحب الله العظيم للناس جعله يضحي بابنه في سبيل إنقاذهم . إن التضحية هي قانون أولئك الذين يتبعون الله ويؤمنون به ويضحون في سبيل الآخرين ويتحملون الآلام ، وكما عبر عن ذلك وليم بن بقوله (لأجزاء بلا تضحية) وكثيراً ما خيل إلي أن جماعة « الكويكارز » قد تأثروا بهذا الرأي كثيراً .

لم تتغير آرائي في شخص المسيح إلا قليلاً . لقد تأثرت في صدر حياتي بما كتبه عن المسيحية شيلي وهارنك والبروتستنتيون من الألمان . لقد وجهت نقداً لاذعاً في محاضراتي في الجامعة لقول ليوزي (أن المسيح ليس إلا فلاحاً من منطقة الجليل في الأرض المقدسة محدود الذكاء) . اعتقد أن استمرار إيمان الحواريين بالمسيح بعد صلبه لم يكن إلا انعكاساً من أنفسهم لما تأثروا به وهو بينهم . ومن غير المعقول أن نؤمن بما قاله ليوزي ونحن نرى الأثر الذي تركته حياة المسيح في حياة الناس مدى الأجيال البعيدة . والاعتقاد بعودة المسيح ليس في رأيي غير انعكاس عميق لحاس روحي لم يستطع الناس تفسيره بغير الأمل العظيم في مستقبل قريب . ألم نجرب ذلك في نفوسنا ونحن نعلق الآمال على وقت سعيد مقبل ، فهل يتغير ذلك الاعتقاد إذا ما أناخ بكلكله علينا وقت سيء مفعم بالآلام ؟

أرى لزاماً علي أن أبين الخطر الذي يكمن وراء ما يسمونه (عبادة المسيح) لقد أساء مارتن لوثر فهم معتقد سنت بول ، ذلك المعتقد الذي كان لا يعني غير صوفية عميقة في المسيح . إن المسيح الذي تعبده الديانة المسيحية هو الذي كان حياً ومات ، والذي لا يفنى أبداً . لقد آمنت بأن الأقسام الثلاثة التي قسم سنت بول بموجبها الطبيعة الإنسانية : الجسد والروح والنفس ، صحيحة من وجهة سيكولوجية . إننا نعيش في عالم المادة ، والروح طليقة تعيش في المادة وما وراءها ، فينبغي أن تكون حياتنا الداخلية تحولاً مستمراً من المادة إلى الروح . إننا نكاد لا نؤمن بإمكان تحويل الشخصية

المادية إلى شخصية غير مادية مطلقة . هذا هو الشرح لضرورة وجود الرمزية فى الدين . أما فى الحياة المادية فأننا نستطيع أن نرى — كما فى المرآة — عن طريق الرمزية . وحينما نمر كل يوم من المنظور إلى غير المنظور ، ومن الحقيقة إلى الخيال ، تكاد تتملكنا رغبة تدفعنا إلى محاولة رؤية المجهول فى عالم الزمان والمكان الذى نعيش فيه . لقد قلت فى إحدى مواعظى أن من أبسط واجباتنا نحن رجال الدين أن نساعد الدين فى بصيرتهم ضعف على رؤية ما لا يدرك بالحواس ، وهو عمل محفوف بالمصاعب . وإذا كان قولى صحيحاً ، كان التقليل من الغموض فى الدين أدعى إلى إثارة أذهان الناس وأدعى إلى بلوغ ذلك الهدف عن أقرب طريق . لست أريد أن أتجاوز أكثر من هذا فى حديثى لأننا كثيراً ما نسمح لأنفسنا بحرية أوسع فى التفكير والخيال .

لقد كان اهتمامى بالفلسفة والدين ، وقد ملكا على جميع أوقات فراغى . ولم يمنع هذا الاهتمام أن تكون نواح أخرى صرفت لها بعض وقتى ورغبتى . إن من حق الفرد فى الحكومات الديمقراطية أن يعبر عن أفكاره تعبيراً صحيحاً ، ويتقدم من حوله بما يدور فى رأسه من مثل وآراء . وهذا يصدق على رجال الدين أيضاً ؛ غير أنه لا يجوز لرجل الدين وهو يحتل منصباً رسمياً فى الكنيسة أن يجاهر بآراء خاصة قد لا يؤمن بها غيره من المسيحيين التابعين للكنيسة . لقد ظهرت محاولات عديدة ليكون للكنيسة صوت فى الحياة السياسية ؛ ولكن الكنيسة تجنبت ذلك تحاشياً مع قول اللورد أكتون الذى يقول : (إن كل قوة مصيرها إلى الفساد) . ولذلك احتفظت الكنيسة بحيادها ولزمت الجانب الروحى من حياة الناس .

كان أبواى من المحافظين ، وقد ابتدأت علاقة أتباع الكنيسة العليا بالاشتراكية عن طريق جور وسكوت وهولاند ، وكانوا يأسفون أن يكون المستر جلادستون خيراً من دزرائيلى من جهة الدين .

أما ما يتعلق بى ، فإنه ليضحكنى أن أذكر — حتى زمن حرب البوير — أننى كنت محافظاً متعصباً على طريقة رديارد كبلنج ، وقد أثرت تلك الآراء فى وفى الكثير من أمثالى ، ورأى القرن الجديد انكماش الأمبراطورية البريطانية وتضاءلها ، وأصبح لزاماً على الانجليز أن تكون لهم آراء تتمشى مع التطور الجديد . لقد بلغت الذروة جميع الشعوب التى تقع على شواطىء الأطلنتى ، وأصبح اتجاه التوسع الامبراطورى إلى الشرق ، وانتهى من ناحية الغرب . إننى لا أنسى قول اللورد هلدان فى مطلع الحرب العالمية الأولى : (لو ركن الألمان إلى السلم لنالوا كل ما يريدون) . لقد ألقوا بالجائزة مرتين من أيديهم . وقد أخذ مصير الاستراتى يطل برأسه على الدنيا . إن المستقبل للشعوب التى لديها أرض واسعة ، ومستوى منخفض فى المعيشة ، واستعداد للعمل المرهق ، ونحن والفرنسيون لا ندخل فى نطاق هذه الشعوب .

كثيراً ما يتراءى لنا أن ثلاثة أخطار تهددنا : أولها حق التصويت العام . من المؤكد أن السياسة ستنحط إلى نوع من المزاد العلنى تباع وتشترى فيه أصوات الأغلبيات غير الممثلة . أقول غير الممثلة لأن المفروض أن أصحاب الحرف التجارية والمهن قد مثلتهم فى المجلس مائة مقعد ، إلا أن الواقع يظهر أن كثيراً من المناطق لا يمثلها أحد غير مدينة لندن والجامعات القديمة . لقد تدهورت معنويات العامل الانجليزى تدهوراً جعله غير مرغوب فيه عند الشعوب الأخرى .

والخطر الثانى : نمو سلطان الحكومة المركزى من أثر الحربين الأخيرتين ، وفى سبيل القضاء على الطغيان الفاشى ، قد جعلنا أنفسنا فاشيين : إن عبادة الدولة شر أنواع الوثنية . والشعب الانجليزى يضع قوته فى المجتمع لا فى الدولة . لكن الدولة الآن تتسول وتجول وتتجاوز كل حق موضوع .

والخطر الثالث هو اكتشاف قنابل الذرة ، ذلك الاكتشاف الذى وضع سلاحاً رهيباً فى يد الدولة وقوى سلطانها . ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من القنبلة الذرية الآن . ولقد بدا ذلك واضحاً فى روسيا وألمانيا حيث هولت الجماهير بأشد ما فى الظلم والمسيحية من معان . نقول لأنفسنا أحياناً : « إن أعمالاً من هذا النوع لا تحدث عندنا » ، ربما كان ذلك صحيحاً .

لكن الخطر لا يزال موجوداً . إن الطبقات المتوسطة التى تحمى الحرية الشخصية آخذة فى الفناء ، والأحرار الذين كانوا فى زمن سابق يحمون هذه الحرية أصبحوا فى موقف سيء لا يحسدون عليه . حينما كنت طفلاً كان الأحرار يعيرون المحافظين بأنهم حزب بليد . لقد جنوا على أنفسهم وهم يفسحون المجال للامتيازات